

النظامية والمدنصرية

بلغت بغداد في الحضارة أعلى درجاتها إبان التمدن الاسلامي وكانت عاصمة العلم ومبعث أشعة الحكمة حتى في عصور تنديها أيام ضعف سياستها وأصبح حكم العباسيين فيها اسمياً ولم تبحر تنفخ فيها روح النمو والرقى التي بثها فيها خلفاء القرن الثاني والثالث فكان العادة أو قوة الاستمرار حكمت ان لا يكون القرن الرابع والخامس والسادس والسابع دون ذينك القرنين الا قليلاً . وظلت هذه العاصمة على علاقتها أرقى من قرطبة والقصوران ومصر ودمشق وسمرقند وخراسان وغيرها من أمصار الحضارة وقواعد العمل على ما بذل زعماء تلك العواصم من العناية في مضاهاة دار السلام وقبة الاسلام .

ولقد كانت المدارس احدى العوامل الكبرى في ذاك الترقى ويكاد الفضل يرجع الى بغداد في إحداثها على هذا الطرز المأثوف وان بقيت الامة زماناً تتلقى علوم الدنيا والدين في حلقات المساجد والمجامع الخاصة . ولقد استاء علماء ما وراء النهر لما بلنهم توفر الخلفاء على بناء المدارس في بغداد واقاموا للعلم مأتماً نقادياً من ابتداله وخشية ان تصبح الغاية من الدراسة ذنبية محضة غايتها جر مغنم واجتلاب دينا عريضة واسفوا ان رأوا بعض رجال العلم أخذوا يتناولون رواتب لقاء دروس ينفون بها الامة وكانوا أجداهم من قبل يلقونها بلا عوض ولا عرض يتألونه

وكان الله خص القرن الرابع بأن قامت فيه أعظم كليات المسلمين اليوم الا وهو الازهر في القاهرة الذي بناه القائد جوهر كنج خص القرن الخامس

بأن وفق نظام الملك وزير السلاجقة لتأسيس المدرسة النظامية سنة ٤٥٩ هـ
 ببغداد ووفق المستنصر بالله العباسي أيضاً أن أسس مدرسته المستنصرية في أوائل
 القرن السابع ببغداد . ولما كانت النظامية والمستنصرية عامرتين بضروب
 العلم غاصتين بالطلاب والاساتذة لم يكن الازهر يذكر في جنبهما . ولكن
 دالت الايام ودرست معالم هاتين الكائتين العظيمتين وكتب البقاء لهذه
 المدرسة المصرية . ولذلك أحصر الكلام فيها الآن فاقول :

أسس نظام الملك مدرسته النظامية وسط الجانب الشرقي من دجلة
 وقسمها الى مقاصير كثيرة خص كل فرع من فروع العلوم الدينية والدنيوية
 بعضها وجعل فيها غرفاً كثيرة يأوي اليها الطلبة والاساتذة هذا ما هناك
 من ابهاء ومتنديات وقاعات وبستان فسيح ومصلى وأما كن للاستراحة وجميع
 ما يلزم لدار علم مثلها من سائر مرافق الحياة كالمطبخ والحمام وغيرها وكانت
 فيها خزانة كتب عظيمة كما في غيرها من المدارس الكبرى مبلة على
 العالمين والمتعلمين فيها . وبنيت طبقتين وأقيمت في أطرافها اروقة وطاقات
 وجعلت فيها أنابيب ومستودعات فيها كل حاجيات أهلها من طعام ولباس وفرش
 وكان المعلمون كالتعلمين يكفون المؤونة فيها فينال كل واحد من أوقافها
 الدارة ما يسد به عوزه وربما ما يفيض عن حاجته

وليس فيما لدي من المواد شيء يصح الاستنباط منه لاصدار حكم
 صحيح على نظام الدروس والمدرسين والدارسين في تلك المدرسة وناهيك
 بأنه كان لها مفت يفتي أهلها في مصالحها على ما هناك من أساتذة هم نخر
 الاسلام والمسلمين في أعمارهم فقد كان الشيخ رضي الدين أبو داود
 سليمان بن المنظر بن غانم بن عبد الكريم الجيلي الشافعي مفتياً فيها . كما

درس فيها جلة مثل أبي اسحق الشيرازي وأبي نصر بن الصباغ وحجة الاسلام
 أبي حامد الغزالي وأخيه أبي الفتوح أحمد وأبي الفتح بن برهان وأبي القاسم
 الدبوسي وأبي عبد الله الطبري وأبي محمد الشيرازي وضياء الدين السهروردي
 وأبي القاسم القشيري وأبي منصور الوزان وأبي الفتح أسعد المهيبي وأبو النجيب
 عبد القاهر بن عبد الله شيخ العراق في وقته وأبو سعيد المتولي وكمال الدين
 النحوي وغير الاسلام أبو بكر المستظري وأبو بكر بن الدهان النحوي
 الضرير والشرف يوسف بن بندار الدمشقي وعشرات غيرهم ممن تخرج بهم
 مئات من الفقهاء والمحدثين والاصوليين والمتكلمين والمتأديين وغيرهم

وشقيقة هذه المدرسة بل خليفة المدرسة المستنصرية بناها سنة ٦٣١
 المستنصر بالله في الرصافة على ضفة دجلة الشرقية وانفق في بنائها ما ينفقه
 الملوك في بناء اذا أرادوا به تخليد ذكركم وأحياء مفاخرهم . وجعل فيها
 خزانة كتب حملت من الآفاق حملها مائة وستون حمالا وفي روايه بعض
 المؤرخين انها كانت مائتين وتسعين حملا عدا ما أضيف اليها بعد . قال الذهبي
 وأوقف هذه المدرسة عظيمة غلت في بعض السنين سبعين ألف دينار قيل
 ان قيمة ما وقف عليها يساوي الف الف دينار . وقد جعلت على المذاهب الاربعة
 وأقيم فيها مستشفى وأطباء يدرسون الطب كما يدرس فيها علم الحيوان والنبات
 والفلك والرياضيات على اختلاف ضروبها والآداب على أنواعها والجغرافية
 والتاريخ وعلوم الحديث والقرآن

وشرط بانها أن يكون عدد الفقهاء فيها مائتين وثمانية وأربعين فقهاً
 يصيب أهل كل مذهب ربع هذا العدد يأخذون رواتب وجرايات كثيرة
 هذا ما عدا المحدثين والمقرئين ومشاهيرهم وعدا كتاب متصل بالمدرسة

خص بثلاثين يتيماً يستظهرون فيه الكتاب العزيز ويكفون المؤونة وعسا
المدرسة الطبية والمتشنى والصيدلية التي يدرس فيها الدارسون ويستشفى بها
المرضى ويأخذون ما يقتضي لهم من المعاجين والادوية

وأول من عهد اليه التدريس في تلك الكلية محي الدين أبو عبد الله
ابن فضلان الشافعي ورشيد الدين أبو جعفر الفرغاني الحنفي والنيابة عنهما
جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي وأبو الحسن المغربي المالكي واشتهر
من مدرسيها جمال الدين العاتولي . ووصف هذه المدرسة العالم محمود
شكري الآلوسي في كتابه مساجد بغداد ومدارسها فقال انه كان فيها
مزملة للماء البارد وان الداخل اليها اليوم من بابها الكبير الجنوبي يرى
فسحة طولها نحو مئة متر وعرضها نصف ذلك وفي كل جهة منها ايوان
رفيع السمك كأنه أعد كل واحد منها لمدرس من المذاهب الاربعة وان
الموظفين بها كانوا أقل من المشتغلين فانهم في كل وقت كانوا دون التي طالب على
اختلاف طبقاتهم واستعدادهم وأما الموظفون فهم دون الالف وكانت
التفرقة بين الاصناف والطبقات بالوان الطيالس فذوو الطيالة الصفر صنف
والبيض صنف والحمر صنف وهكذا . وكان في بابها ساعة عجيبة

هذا ملخص ما كانت عليه النظامية والمستنصرية من الاتقان العجيب
ولم يبق للأولى من أثر اليوم غير قاعدة منارتها وهي مطبخ أحد
الاسرائيليين وبقيت الثانية محفوظة من أيدي التخريب الا قليلا يبدانها
حولت الى ادارة جمرك منذ بضع سنين وذهبت تلك الحضارة وما يتبعها
جملة وراخت النظامية ولم نعد نسمع الا باخبارها وربما تتبعها المستنصرية تلك
المدرسة التي بلغ من غرام بانيتها بها كما قال ابن العبري انه بنى بجانيها بستاناً

خاصاً له وقلماً يمضي يوم الاويركب في السيارة ويأتي البستان يتزده فيه ويقرب
من شباك مفتوح في ايوان المدرسة ينظر الى البستان وعليه ستر فيجلس
وراء الستر وينظر الى المدرسة ويشاهد أحوالها وأحوال الفقهاء ويشرف
عليهم ويتفقد أحوالهم . فليت المستنصر بحيا اليوم فيرى ما فعلت الايام بما
شاده وشاده نظام الملك

البابليون

المملكة الكلدانية — قامت مملكة اشورية جديدة مكان بلاد الكلدان
القديمة الدائرة دعت مملكة البابليين او المملكة الكلدانية الثانية . وقد تكلم
احد انبياء اسرائيل على لسان الرب فقال : « انا احبي الكلدان تلك الامة
الظالمة وسرعان ما تطوف الارض للاستيلاء على مساكن غيرها وان خيولها
لا تخف سيراً من النمر وفرسانها لينشرون في الاطراف ويطيرون كالنسر
ينقض على قنيصته » وبالجملة فقد ألف الكلدانيون الفروسية والحرب
والفتح وهم يماثلون الاشوريين كل المماثلة فاستولوا على بلاد الفرس
والجزيرة وبلاد اليهود وسورية وكانت مدة حكمهم قصيرة فقد أنشئت
المملكة البابلية سنة ٦٢٥ وابادها الفرس سنة ٥٣٨ ق . م

بابل — كان يختصر (٦٠٤ — ٥٦١) من اقدر ملوكها وهو الذي
خرب بيت المقدس وساق اليهود أسرى واسس في بابل عاصمة بلاده
كثيراً من المعابد والقصور . اقيمت هذه المعاهد بالآجر لقلة الحجر في
سهل الفرات . ولما كتب عليها الدثور والعفاء لم يبق منها الا كومة من التراب
والانقاض وقد عثر في المكان الذي كانت فيه بابل على بعض كتابات